

ميشال شيحا: الرجل السياسي (Michel CHIHA : L'Homme Politique)

مقدمة:

إن تعريف السياسة لا يقتصر على القول بأنها "فنّ حكم الدولة"، بل هي كما عرّفها أندره لالند (André Lalande) "تعني ما يتصل بالدولة، والحكم، وما يتعلّق بالأمور الاقتصادية والقضايا الاجتماعية كالعدالة والإدارة، أو بقية نشاطات الحياة المتحضرة من مثل الفن، والعلم والتعليم، والدفاع الوطني"⁽¹⁾. هذا يعني أن النشاط السياسي هو ذو صفة عمومية لكونه خلاصة لمجمل النشاط الاجتماعي للإنسان بحيث يختصر ويستجمع ويهيمن على بقية النشاطات. ولذا اعتُبر النشاط السياسي، على الدوام، النشاط الأكثر نبلاً والمتفوق بامتياز على ما عداه من النشاطات البشرية! فيه يجتمع ويتقاطع مختلف أبعاد الإنسان. لكن الاختلاف يظل قائماً بين رجل سياسي وآخر انطلاقاً من ثلاثة: غنى معاييرها في الفكر والعمل، ومدى امتلاكه للمميزات المحددة للرجل السياسي، ومدى انطباق الجانب العملي في فكره على المبادئ النظرية التي طالما آمن بها ودعا إليها ودافع عنها.

أولاً: ما هي معايير فكر ميشال شيحا السياسي؟

ثانياً: وما هي المميزات الخاصة المحددة لميشال شيحا كرجل سياسي بامتياز؟

ثالثاً: ميشال شيحا الرجل السياسي: فيلسوف التاريخ.. ومُربي الأمة!

أولاً: معايير فكر ميشال شيحا السياسي

(Les Normes de la Pensée Politique de Michel Chiha)

تصحّ مقارنة الفكر السياسي لميشال شيحا ضمن خمسة معايير:

- 1 **رجل الفكر الانساني (Humaniste):** فهو إذ يعرض لمختلف مكوّنات النشاط البشري الاجتماعي: في الجماعة والمجتمع والدولة والسلطة والأمة، والأمم، وما يرافقها ويحيط بها من نظرات ونظريّات، فإنّ غايته السامية والنهائيّة، كانت، وظلّت، الإنسان والقيم الإنسانيّة التي هي فوق كل ما عداها من القيم.
- 2 **رجل الخلقية المسيحية،** وهي مرتبطة بنزعه الإنسانيّة إذ هي تتعلّق بالاحترام المطلق والكامل للكرامة البشريّة (Respect de la Dignité Humaine) كأعلى وأرقى ما في الإنسان إذ ه التعبير الآخر عن حرّية الإنسان. ومن هنا قول البابا بنديكتوس السادس عشر: "إن الكرامة البشريّة هي محور الخلقية المسيحية". وعليه، يمكن القول، بل التأكيد، بأن نظرة ميشال شيحا السياسيّة لا تنفصل عن الرؤية المسيحية للإنسان والمجتمع والتاريخ والكون!
- 3 **رجل الالتزام الحرّ (l'Engagement Libre)،** خارج، وفوق، وأحياناً في مواجهة الإيديولوجيّات اليساريّة والقوميّة والأصوليّة الدينيّة. إن التزامه بالحرّية أولاً، لا يسمح له بأن يتقيّد بنظام سياسي إيديولوجي شمولي مغلق. ومع انه رائد الفكرة اللبنانيّة وباني لبنان المعاصر، فهو لم يعمد إلى صياغة عقيدة لحزب سياسي لبناني وإن كان مُلهماً (Inspirateur) لجميع الأحزاب السياسيّة اللبنانيّة. وهو لم يعلن في مانيفست عقائدي فكري / سياسي نظرتة إلى لبنان: الإنسان، الدولة، الحضور والكيان.. ذلك أن عقيدته السياسيّة ليست ضرباً من ضروب الإيديولوجيا! وهذا ينسجم تماماً مع ثقافته المسيحية⁽¹⁾.
- 4 **رجل الواقعية التاريخيّة.** وتشكّل أحد المعايير الأساسيّة في فكر ميشال شيحا السياسي وهي تعني وعيه واستيعابه لحقيقة الواقع المجتمعي الذي يعيش فيه وتحليل هذا المجتمع في خصائصه الأساسيّة كما هو.. ودراسة علاقته بمحيطه الجغرافي والاجتماعي واستشراف مستقبله آخذاً في الاعتبار الأفكار والتطلّعات الروحيّة والثقافيّة والاجتماعيّة لهذا المجتمع، وهدفه في ذلك مزدوج: تحرير الإنسان، وتمجيد الحياة الحرّة!

(1) جاء في رسالة "السنة المئة" البابويّة، فقرة 44، ما يلي: "الإيمان المسيحي ليس ضرباً من ضروب الإيديولوجيّة، بل يرضى أن تتحقّق حياة الإنسان في التاريخ بطرق متنوّعة وناقصة".

5 رجل المنهجية العقلانية (La Méthodologie Rationnelle). اعتمد ميشال شيحا المنهج النقدي في مجمل كتاباته، ولاسيما في كتاباته السياسية. وهذا في "طبيعة الأشياء"، لأنّ الفكر العلمي هو بالتعريف فكر نقديّ. ولتأكيد صحة وعقلانية طروحاته وأفكاره، ونقد الآراء المخالفة، استعمل شيحا سبع وسائل اعتبرها بمثابة معايير لتأكيد مصداقية منهجيّته العقلانية، وهي: "المنطق، التقليد، التاريخ، الجغرافيا، الاقتصاد السياسي، الفطرة السليمة، وطبيعة الأشياء" (La logique, la tradition, l'histoire, la géographie, l'économie politique, le) (bon sens, et la nature des choses).

.. باختصار، ميشال شيحا هو بين المفكرين القلائل الذين استطاعوا أن يوفّقوا بين اللغة الشاعرية الموحية والمنهج العقلانيّ العلميّ. وهو ما أتاح له أن يجسّد السياسة كعلم وفنّ في آن. كعلم، فهي قواعد ونظم أرقاها الدستور، الذي كان هو أحد أبرز واضعيه، وكفنّ فهي توقّع ورؤية أرقاها لاهوت الأرض (La Théologie du Territoire). وانطلاقاً منه، يهمني أن أعلن، من خلال ترجمتي لكتابه "تحوّلات على المتوسط" « Variations sur la Méditerranée », أنّ ميشال شيحا الرائد في كثير من الميادين هو رائد أيضاً في علم الجيوبوليتيك منذ منتصف القرن العشرين. فهو لم يكتفِ بتحليل أحداث التاريخ على ضوء الجغرافيا، بل دعا وسعى إلى تحديد مسار التاريخ، تاريخ الشرق الأدنى والبحر المتوسط لأن تكون خيارات شعوبه وفق مستلزمات الجغرافيا! وليس وفق العواطف البالية والخطب الفارغة.

ثانياً: المميّزات الخاصة المحدّدة لميشال شيحا كرجل سياسي

(Les qualités déterminantes de CHIHA : Homme politique)

ما يجري الكلام عنه هنا ليس أيّ سياسيّ (un politicien)، بل "الرجل السياسي" (L'Homme Politique)، وأكثر: الرجل ذو الدعوة السياسيّة (l'Homme à vocation politique). والفارق كبير بين الاثنين: في المفهوم والثقافة والدور والممارسة. ومن زمن عالم الاجتماع الألماني المعروف، ماكس فيبر (Max Weber) (1864-1920) تمّ تصنيف المميّزات المحدّدة للرجل السياسي، وهي التي اعتبرها المفكّر الفرنسي ريمون أرون (Raymond Aron) بمثابة "المرجعيّة الأخلاقيّة للرجل السياسي" (L'Ethique de la personnalité politique). لكأنّ هذه المميّزات كتبت مسبقاً من وحي ميشال شيحا وعنه، وهي ثلاث:

1 - La Passion

2 - Le Sentiment de la responsabilité

3 - Le Coup d'œil.

1 La Passion هو الشغف بالشيء.. والاهتمام الشديد والولع به والحماس له إلى الحدود القصوى من التأثير. وما هو هذا الشيء عند ميشال شيحا؟ هو القضية، قضية لبنان الوطن، قضية الإنسان، قضية الحرية، قضية الخلاص والتي يتوجب أن يلتزم بها الرجل السياسي إلى حدود التضحية في سبيلها. أو هو قضية الفداء، فداء البشريّة في بعدها الميتافيزيقي كما عاناها والتزم بها وصُلب من أجلها الفادي يسوع المسيح (La Passion du Christ). وفي كلّ ذلك، فإن هذا الشغف لا يكون إلا احتضاناً لقضية نبيلة هدفها الأسمى وغايتها: الكرامة البشريّة (La Dignité Humaine). على هذا المستوى يلتقي شغف الرجل السياسي بشغف المسيح الفادي ويتقاطعان على محور الكرامة البشريّة، أي على محور حرية الإنسان وخلصه في معترك التاريخ.

2 لكنّ هذا الشغف على عمقه ونبله وصدقه يبقى بحاجة إلى بوصلة توجّهه وتحضنه وترسم أبعاده والطريق إليه، وهذا هو معنى الشعور بالمسؤوليّة (Le sentiment de la responsabilité). فميشال شيحا الرجل السياسي، مسؤول تجاه نفسه، وتجاه أهله، وتجاه شعبه، وتجاه ربّه، وتجاه المجتمع الدولي، وتجاه النظم والقيم والتراث، وتجاه مستلزمات التاريخ والجغرافيا، وبشكل خاص وأساسي تجاه الحقيقة، بحيث لا يمكن الفصل لديه بين الحرية والمسؤوليّة.

وعلى حدّ قول أحد اللاهوتيين المسيحيين الكبار: "إنّ المسؤولية تعني الحرية"⁽¹⁾.

3 النظر السريعة الخاطفة (Le Coup d'Œil).

إن هذه النظرة الصحيحة تاريخياً، والسريعة زمنياً، والخاطفة عقلياً، تقوم على سبعة عناصر اشتهر بها ميشال شيحا بذكائه الخارق:

أ هي تعبير عن الصفة السيكولوجية للرجل السياسي.. عن مستوى التحسّس لديه و"عن الفرح الحميم الذي يشعر به من يعانق العمل السياسي"، كما يقول فيبر (Max Weber)، وذروته: "الشعور بالقدرة".

ب وهو رجل لا ينغمس لا بالناس ولا بالأشياء ولا بالأحداث، بل يُبقي على مسافة بينه وبينها ليتمكّن من التأمل محتفظاً بهدوئه النفسي.

ج وعليه أن يوفّق بين حرارة شغفه بالقضية التي يلتزم بها من جانب ومعالجتها بهدوء وبرودة من جانب آخر.. "وأن يضع شعور القدرة لديه في خدمة هذه القضية".

د ورجل السياسة يمارس السياسة بعقله أولاً وأخيراً وليس بعواطفه وأهوائه (وهنا يُذكر موقف شيحا المعروف ضدّ التجديد لصهره الشيخ بشاره الخوري).

هـ ولا يأخذ الشغف المهم والضروري بَعده الحقيقي إلا بفضل ابتعاد أو انفصال (détachement) الشغوف عن القضية التي لديه شغف والتزام بها، كي يراها بشكل أوضح ويحكم عليها بشكل أفضل: ليرأها بكليتها.. وعلى حقيقتها!

و هذه المسألة تطرح موضوع العلاقة بين الرجل السياسي والتاريخ: إلى أي مدى هو قادر على السيطرة على أحداث التاريخ.. وانتزاع عنصر الخيار من عنصر الضرورة.. (كما يقول كيسنجر)، وبذلك يتحدّد مدى نجاح الرجل السياسي أو فشله بالاستناد إلى حسن اختياره أم سوء اختياره في الفكر والممارسة. ولقد ثبت تاريخياً، أن خيارات وآراء ومواقف ميشال شيحا في مختلف الموضوعات التي عالجها كانت صحيحة وصائبة.. فهو صاحب فكر لا يشيخ!

(1) الأب بولس نويال اليسوعي: "الثورة بين ديانة الأب وديانة الابن"، مواقف، عدد 3، ص 155.

ز في هذه النقطة بالذات، يتحدّد ما يُعرف "بقوة الشخصية السياسيّة"، القائمة من جهة على قوة الإرادة وقدرة التعقّل وسرعة الوعي ومن جهة ثانية، على ما يسمّيه جاك بلونديل (J. Blondel) "الذكاء السياسي" (l'intelligence politique) الذي اشتهر به ميشال شيحا. وأهمّ مميّزاته: الاستيعاب السريع للنقاط الرئيسيّة للمشاكل التي تواجهه، وعادةً ما يكون غير مطلع عليها مسبقاً، والتسلّح بطرح موفّق و متماسك، وتبيّن ثغرات الطرح الآخر الذي يقوم بنقده. بمعنى آخر، أن يمتلك الرجل السياسي الجواب الحاضر، والذهن المتوقّد، والطاقة الفكرية العالية، وقوة الطبع. ويمكن اختزال هذا الذكاء بالمعادلة الشهيرة، وهي: $I = \frac{P.A}{t}$.

أي أن عامل الذكاء يتحدّد في ضوء الوقت اللازم لتكيّف الرجل السياسي، والإنسان عامة، مع الوضعيّة التي تواجهه. لقد كان ميشال شيحا أبرع وأسرع المحلّلين للقضيّتين اللبنانيّة والفلسطينيّة ولا يزال إلى اليوم المرجع الأبرز لفهم ووعي ومقاربة هاتين القضيّتين.

ثالثاً: ميشال شيحا الرجل السياسي: فيلسوف التاريخ.. ومربّي الأمة !

لأنّ معظم ما كتبه ذو بُعد سياسيّ، باعتبار السياسة "فنّاً شريفاً جداً" كما يصفه فاتيكان الثاني، لأنها تتويج لمختلف نشاطات الإنسان والعمل على تأمين حق الجماعة في الرفاه والحرية والمساواة والعدالة والسلام.

لقد كان شيحا إنسانويّاً وطنياً في آن ولم يكن قومياً شوفينياً:

هدفه النهائي: إنسان لبنانيّ حرّ في أمة لبنانيّة حرّة.

وهذا واضح في موقفين جوهريين أعلنهما شيحا:

الأول: قوله "إنّ إعلان لبنان الكبير أول أيلول 1920 هو الحدث الأكثر أهميّة في تاريخنا".

والثاني: ما نصّ عليه في المادة 57 من الدستور من أن رئيس الجمهورية يحلف يمين الولاء "للأمة اللبنانيّة" وللدستور.

إنّ احتضان شيحا الفكريّ والروحيّ والعملية للأمة اللبنانيّة، أي للقضية اللبنانيّة هو المسألة المركزيّة في فكره السياسي، "لأنه لبناني شديد التمسك بلبنانيّته"، كما يقول المؤرّخ كمال الصليبي.

ولقد استحوذت هذه القضية على كل همّه واهتماماته، أي على شغفه (sa passion)، كما يقول ماكس فيبر في كلامه على المميزات المحددة للرجل السياسي. ولذا كان له تصوّر شامل عنها، هو التصرّور، بل الرؤية، الأكثر إحاطةً و"واقعيةً" وعمقاً وصحّةً وراهنيةً.

لقد اجتهد ميشال شيحا، في سياق رسالته السياسيّة الوطنيّة الإنسانيّة، أن يبرز الأمة اللبنانيّة بحدودها التاريخيّة "الغير قابلة للتغيير" كما يقول الصليبي، إبرازها: وجوداً وكياناً ومصيراً في سبعة مجالات:

أولاً: بيرّر وجودها: باعتبارها حقيقةً جغرافيّةً وتاريخيّةً في مواجهة إسرائيل الكبرى وسوريا الكبرى... إذ أنّ لبنان نقض لهذه ونقيض لتلك!

ثانياً: يعطيها معنى: معنى المماهة (identification) مع الحرّية تحيا بها وتموت من دونها، لأنّها "أرض ميعاد الأقليات"، أي أرض اللقاء مع الحرّية.

ثالثاً: يحدّد دورها: لبنان المحور (axe central) لا لبنان الجسر، لبنان الفاعل والمنفعل بحركة التاريخ والحضارات والاتجاهات والديناميّة (dynamisme)، لا لبنان الجسر ذي الاتجاه الواحد والجمود (inertie).

رابعاً: يعيّن اتجاهها: .. من وإلى الحضاريّة المتوسّطيّة ببعدها الشرق أدنويّ جغرافياً (بعيداً عن بعدها الشرق أوسطي) والتفاعل المسيحي الإسلامي ببعده التعدّدي ثقافياً.

خامساً: ينبّه إلى تحدياتها: وهي ثلاثة رئيسيّة:

- 1) لبنان الممرّ: شعوب وفتحون: طريق الفيلة.
- 2) مصالح النفط: الديمقراطية في سوق النخاسة الدوليّة.
- 3) جوار إسرائيل: لن نعرف الراحة أبداً في جوار دولة مجسّية (tentaculaire).

سادساً: يصوغ نظامها الأساسي، كرجل سياسيّ تأسيسيّ، من خلال الدستور: وفيه ركائز الحياة العامّة: الروح القيم السلطات الحقوق الواجبات الأنظمة... بروحيّة ثابتة ومستمرّة.

سابعاً: يربط مصائرنا بنا نحن. وفي ذلك علينا أن نعول على خاصيّاتنا اللبنانيّة السبع التي نمتلكها كأفراد ولا نحاول أن نفعلها كجماعة...: الذكاء الخارق عمق الثقافة سرعة الحركة دقة الفعل غنى الروح حبّ الريادة التمسك بالحرّية.

في معجم لاروس للفلسفة (Dictionnaire de la Philosophie - Larousse) ورد تحت كلمة *politique*، إن من يستوعب حقائق أمته بأبعادها المختلفة، يستحق أن يُقال عنه إنه فيلسوف التاريخ لهذه الأمة. بل أكثر، يطلق عليه المعجم صفة لعلها أكثر أهميّة ونبلاً: "c'est le pédagogue de la nation" أي إنه "مربّي الأمة".
أجل، ميشال شيحا كان... وسبقى مربّي الأمة اللبنانيّة.

في الخلاصة:

- أجل، في مراجعة لتراث ميشال شيحا الفكري يتبيّن بوضوح وسهولة أنه هو التجسيد الحيّ للصفات المحدّدة للرجل السياسي:
- فهو رجل القضية اللبنانيّة بامتياز، شغف بها وعمل لها طوال حياته، وهو باني لبنان المعاصر إنساناً وكياناً وفكراً.
 - وهو رجل المسؤولية التي حملها طوال حياته دفاعاً عن القيم الروحية والإنسانيّة والوطنية في لبنان والشرق الأدنى.
 - وهو رجل الاستشراف التاريخي الذي استوعب بسرعة وذكاء، مستلزمات المجتمعات والجغرافيا والتاريخ والفلسفات والأديان والمبادئ.
- إنّ راهنيّة فكره السياسي الرؤيويّ جعلتنا نقول عنه "إنّه آخر أنبياء فلسطين.. وأوّل وآخر أنبياء لبنان".
- لقد عمل من أجل دولة لا يريدّها أن تموت، هي فلسطين.
وناضل من أجل دولة يريدّها أن تحيا وتبقى وتستمرّ، هي لبنان.
- لقد كان ميشال شيحا رجل فكر سياسيّ خلاق قلّما عرفه شعبنا ومنطقتنا،
... إنه يذكّرنا، أكثر ما يذكّرنا، بالحكيم الإغريقي سيوسيدس الذي كان يقول: "على الرجل السياسي أن تكون عيناه نظيفتين".
ومعنى ذلك أن يرى صحيحاً.. وأن يرى بعيداً..
- وليس بين الذين تناولوا مصيرنا الوطني منذ أوائل القرن العشرين من هو بخامة وقامة ميشال شيحا الفكريّة،
الذي يثبت ويتأكد كلّ يوم عبر كتاباته (النبويّة)،
.. أنه فعلاً كان يرى صحيحاً.. ويرى بعيداً.

وشكراً!